

النقد البنوي: بينية اللسانيات والنقد الأدبي.

Structural criticism: the intersection of the linguistic and literary criticism

د. أمال بناصر*

جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان (الجزائر)

Amelbennacer08@gmail.com

تاريخ القبول: 2024/03/07

تاريخ الاستلام: 2023/09/04

ملخص:

أفرزت اللسانيات كعلم العديد من المدارس اللغوية، ورغم استقلالها عن باقي العلوم، إلا أنها أثرت فيها، وأفادت بها بعض مبادئها، فمفهوم البنية مثلا، ظهر لسانيا لينتقل بعد ذلك لشتى المجالات نذكر منها، النقد الأدبي، الذي تبنى هذا المصطلح. ومن هذا المنطلق تأتي هذه الدراسة، لتجيب عن الإشكالات التالية:

- ما هي البنيوية؟ وما هي الإرهاصات الأولى لظهورها لسانيا؟ وكيف انتقلت لنقدنا الأدبي؟

لقد جاءت البنيوية النقدية امتدادا للبنيوية اللغوية، وقد كان للتطور اللساني في الغرب صدى واسع في العالم العربي. فتسرّبت البنيوية إلى دراستنا العربية، واعتمد نقادنا التحليل اللساني للنصوص الأدبية، أو بالأحرى استعملوا ما يسمى بالتحليل البنوي.

الكلمات المفتاحية: البنية؛ النقد؛ النص؛ اللغة.

Abstract:

Linguistics as a science has produced many linguistic schools, and despite its independence from the rest of the sciences, it affected them, and benefited them with some of their principles the concept of structure, for example, appeared linguistically to move after that to various fields, including literary criticism, which adopted this term. From this stand point, this study comes to answer the following problems: what is structuralism? And what are the first indications of its appearance in linguistics? And how did it move to our literary criticism?

The critical structuralism came as an extension to linguistic structuralism. The linguistic development in the west had a wide echo in the Arabic studies, and our critics adopted linguistic analysis of literary texts

Keywords: Structure; criticism; text; language.

1. مقدمة:

من الحقائق التي غدت مقررة في عصرنا أن المعرفة الإنسانية مدينة إلى اللسانيات بفضل كبير سواء في مناهج بحثها، أو في تقدير حصيلتها العلمية، وإشعاع علم اللسان على بقية فروع المعارف الإنسانية قد تجسم منذ أن تمحضت عنه الرؤية البنيوية كطريقة في التفكير وكمنهج في البحث على أن اللسانيات التي ما فتئت تتطور منذ مطلع هذا القرن قد تفاعلت مع ما أفرزته من منهجية بنيوية فدخلت بتفاعلها هذا طوراً جديداً في تاريخها وهو طور استثمار المعطيات النظرية العامة في تطبيقات عملية على مختلف علوم اللسان فحدث بذلك تغيير جذري عميق في مناهج الوصف والنقد والتدريس⁽¹⁾.

لقد ظهرت رؤية جديدة للدراسة، وذلك منذ ظهور المفاهيم البنيوية بين الدراسات اللغوية والدراسات الأدبية ظاهرة من مظاهر القرن العشرين ولما اصطبح النقد بالطابع اللساني أصبح ينظر للنص على أنه وحدة لغوية لها بنية سطحية ظاهرة، وأخرى عميقة تتطلب الدراسة، وبنيتها هذه تتحدد من داخله، ولا علاقة لها بما هو خارجي.

وهكذا جاءت البنيوية النقدية امتداداً للبنيوية اللغوية، وقد كان للتطور اللساني في الغرب صدها الواسع في العالم العربي، فتسرّبت البنيوية إلى دراساتها العربية، واعتمد نقادنا التحليل اللساني للنصوص الأدبية أو بالأحرى استعملوا ما يسمى بالتحليل البنيوي.

وعليه فقد نشأ المصطلح - بنيوية - لسانيا في الغرب، وتسرب إلى مجالنا النقدي العربي، فبعد ظهور البنيوية لسانيا على يد كل من "سوسور" في أوروبا، و"بلومفيلد" في أمريكا، تسربت بعض المصطلحات إلى المجال النقدي فأكسبته مفاهيم جديدة جعلته نقداً بنيوياً يختلف عما سبقه، ولعلّ أول من نادى بالتحليل الشكلي للأدب مدرسة الشكلايين الروس التي كان "جاكسون" أحد أبرز علمائها حيث كان له الفضل الكبير في تأسيس "حلقة براغ" التي عملت على تطوير المفاهيم البنيوية.

يلاحظ المتتبع لحركة النقد العربي الجديد تعامل العقل النقدي العربي مع الدراسات الأدبية الأوربية بحماسة وانبهار كبيرين حيث ترددت أسماء "رولان بارت" و"جوليا كريستيفا" و"تودوروف" و"جولدمان" و"سوسور" و"جاكسون" و"غريماش" وغيرهم في الكتب والمجلات العربية⁽²⁾.

فما هي البنيوية؟ وما هي الإرهاصات الأولى لظهورها لسانياً؟ وكيف انتقلت لنقدنا الأدبي؟ إنّ الهدف الرئيسي لهذه الدراسة، هو التعرف على البنيوية: مفهومها وأصولها، وانتقالها من مجال اللسانيات للنقد الأدبي، وآليات تحليل النص الأدبي بنيوياً.

ولمعالجة الإشكالية المحددة أعلاه، ولتحقيق أهداف البحث، اتبعنا الخطة التالية:

1. مقدّمة - تمهيد للموضوع.
2. ظهور البنيوية لسانياً.
3. آليات التحليل البنيوي للنص الأدبي.

4. خاتمة- أهم النتائج المتوصل إليها-.

2. أصول البنيويّة :

لفهم البنيوية لابد أن نعود إلى أصولها الأولى، وسنحاول تقديم طرف من تاريخها القريب لإلقاء الضوء على بذورها في الفكر الحديث وتطورها في مختلف العلوم الإنسانية قبل أن نرى كيف تصب في الدراسات النّقديّة والأدبيّة⁽³⁾، وقد أجمع الباحثون أو كادوا على حفنة من المبادئ اللغوية الأولية كرس لها عالم سويسري حياته القصيرة في مطلع هذا القرن- حيث لم يمّله القدر لإنهائها وتسجيلها كتابة وإنما لم يزد عن إملائها في عدة برامج دراسية على طلابه في جنيف- تمثل حجر الزاوية ونقطة الانطلاق في النظرية البنيويّة، لا في علم اللغة فحسب، وإنما في جميع ميادين الدراسات الإنسانية، وهذا العالم هو "فرديناند دي سوسور"⁽⁴⁾، مؤسس مدرسة جنيف مؤسساً لعصر بأكمله من الدرس اللساني كما عدّه "جورج لينز" مؤسس اللسانيات الحديثة، وإليه يرجع الفضل في تحديد المنهج الحديث بإبراز تفاصيله وحدوده، وإيضاح مبرراته وإمكانات تطبيقه، كما أنه قام بوضع الأسس التي مهدت لتحول البحث اللساني من المنهج التاريخي المقارن إلى البنيوية، فقد طرح في بداية كتابه قضية "بنية اللغة" وهي قضية لم يعرها الباحثون قبله اهتماماً يذكر⁽⁵⁾.

لقد ابتعد "سوسور" عن النظر في اللّغات من وجهة النظر التاريخية أو المقارنة، وأكد أن أفضل منهج لدراسة اللغة هو أن نحاول وصفها كما هي في فترة زمنية محددة وأن نصل من هذا الوصف إلى القواعد أو القوانين العامة التي تحكمها أو نتوصل على الأقل إلى معرفة البنية أو التركيب الهيكلي لها فابتعد بذلك عن المنهج السابق⁽⁶⁾، وميز بين مصطلحين يشيران إلى إحدى الثنائيات الأساسية عنده- (سانكرونية، دياكرونية) حيث يقصد بالسانكرونية أو الآنية؛ وصف الظاهرة اللغوية من حيث هي مجموعة من العناصر المترابطة في لحظة بعينها وفي لغة بعينها، وذلك على النقيض من الدياكرونية أو التعاقب الذي يشير إلى تتابع هذه العناصر في حقب مختلفة من تطور لغة واحدة.

وعليه كان مركز انطلاق الفكر البنيوي كتاب دي سوسور "محاضرات في الألسنية العامة"، ومن أهم الثنائيات التي تقوم عليها نظريته "سانكرونية، دياكرونية" التي غيرت من المفاهيم آنذاك ودعت لدراسة اللغة آنياً لا تاريخياً، فصارت اللغة نظاماً بذاته، لا علاقة له بالتاريخ.

أمّا في أمريكا فقد ظهر العديد من اللّغويين، من بينهم بلومفيلد الذي اهتم بدراسة شكل اللغة، واستبعد دراسة المعنى، لأنه اعتبره أضعف عنصر في المجموعة اللغوية، ورغم تتبعه لمختلف التطورات اللسانية الأوروبية إلاّ أنّه لم يتبنها، حيث تأثر بالسلوكية التي تقوم على مبدأ المثير والاستجابة، وربطها باللسانيات.

وانطلاقاً من آنية سوسور سعت طائفة من النقاد إلى تأسيس قاعدة علمية للدراسات الأدبية، من خلال الانتقال من علم اللّغة إلى الأدب، واعتبارهم الظاهرة الأدبية كيانا لغوياً مستقلاً بذاته لا يدرس إلاّ من الداخل، الذي لا علاقة له بالخارج، ولعلّ الشكلايين الروس هم رواد هذه الرّؤية التي توضحت أكثر مع البنيويين "فالناقد

الأدبي - من وجهة نظر الشكلية- يهتم بالأثر الأدبي ذاته، ولا يلقي بالا للظروف الخارجية التي أدت إلى إنتاجه، سواء كانت اجتماعية أو سياسية أو شخصية... فالأدب هو نفسه موضوع علم الأدب كما أنّ الشعر هو موضوع "علم الفن الشعري"، وهكذا اهتموا بالأصوات والإيقاع، وبالصورة الفنية، والاستعارة والعروض في علاقاتها المتبادلة⁽⁷⁾.

قبل ثورة 1917، بدأت تظهر البوادر الأولى للدراسات الشكلية، وذلك بواسطة جماعتين، الأولى: حلقة موسكو اللغوية، التي تأسست سنة 1915، بقيادة رومان جاكسون، والثانية جماعة أوبوجاز، والكلمة اختصار لعبارة باللغة الروسية تعني "جمعية دراسة اللغة الشعرية" التي تأسست سنة 1916، ومن أبرز أعلامها فيكتور شكولوفسكي، وبوريس اينباوم⁽⁸⁾ ولا تضم هذه الجمعية النقاد فحسب بل ضمت شعراء كذلك⁽⁹⁾. لقد نشأت المدرسة الشكلية نتيجة لالتقاء أعضاء الجماعتين عبر مجموعات صغيرة لدراسة أهم المشاكل في نظرية الأدب، من طرف نخبة من الشباب الباحثين لا يتعدى سنهم العشرين آنذاك، ليصبحوا فيما بعد روادا للفكر النقدي، نذكر منهم رومان جاكسون الذي كان متتبعا للتطورات العلمية التي تنبعث أوروبا الغربية، وذلك في مجال الدراسات اللغوية والفلسفية، وقد قام وبمساعدة رفاقه، بدراسة لغة الشعر، وسعى لتحديد منهجية لدراساتها في حوالي عشرين مقالا، نشرت بصفة جماعية وحملت أحيانا توقيع بعض الأعضاء⁽¹⁰⁾، يبدو جليا من خلال اسمي "حلقة موسكو اللغوية" و"جمعية دراسة اللغة الشعرية" أنّ هناك تأكيد على اللغة، فالأدب عند الجماعتين بنية لغوية، لكن لغته تختلف عن لغة التواصل العادي⁽¹¹⁾. إنّ المدرسة الشكلية الروسية من أهم روافد الفكر البنيوي، وفي هذا يقول صلاح فضل: "تعدّ المدرسة الشكلية الروسية الرافد الثاني من روافد البنائية الكبرى، بعد أن وضع سوسور حجرها الأساسي، وإن كنا نضعها في المرتبة الثانية، فإننا نتبع بذلك لونا من التسلسل التاريخي من جانب، إذ أنّ مدرسة جنيف قد تبلورت في العقد الأول من هذا القرن، بينما نشأت المدرسة الشكلية وازدهرت في العقدين الثاني والثالث، كما نتبع نوعا من التسلسل المنطقي لأننا لسنا بصدد شرح البنائية على إطلاقها، وإنما في تطبيقاتها الأدبية والنقدية على وجه الخصوص"⁽¹²⁾.

أثرت الشكلية الروسية في الدراسات الأدبية والنقدية، وساهمت في نشأة نظرية الأدب⁽¹³⁾، فقد جاءت هذه المدرسة بالعديد من الأفكار والآراء، كان لها أثرها الواسع على الدراسات الأدبية، والهدف الرئيسي الذي سعت إليه هو دراسة "سمات الأدب" بمنهج موضوعي، تتحقّق فيه العلمية، وقد رفضت دراسة الأدب من خلال السيرة الذاتية للكاتب، كما رفضت ربطه بالأحداث الاجتماعية أو المسار التاريخي، فالأدب عندهم له خصوصيته المستقلة⁽¹⁴⁾، وما كان محوريا بالنسبة للشكلائية، هو حدسها بأنّ العمل الفني وحدة جمالية خاضعة لقوانينها الخاصة⁽¹⁵⁾ لقد كان النقد الأدبي في روسيا، بحاجة إلى منهج جديد، وإلى مبادئ يستعيرها من حقل آخر، كأدوات جديدة للبحث، فوجد في علم اللغة ضالته، حيث كان الشعر آنذاك محور الدراسة الأدبية، فاهتم العلماء بدراسة مشاكل لغة الشعر وأصبحت هذه الأخيرة، ميدان عمل مشترك بين علماء اللغة، والنقاد المهتمين بالشكل اللغوي للشعر، وقد أثار هذا التزاوج بين الفن و اللغة، الحقلين معا⁽¹⁶⁾.

إنّ منطلق الشكليّة الروسيّة هو: أنّ الأدب نفسه موضوع علم الأدب، فالنّاقّد عليه أن يتعامل مع النّص، لا مع ظروفه الخارجيّة، التي أدّت إلى إنتاجه، وقد رفض الشّكلاونيون الرّوس، كلّ ماهو خارجي عن مجال الدّراسة الأدبيّة واعتبروه عائفا مثل علم النّفس والاجتماع، والتّاريخ الثّقافي، كما حدّدوا مهمّة النّاقّد بالبحث عن الملامح المميّزة للأدب ورفضوا التّطبيقات النّفسيّة التي تهتم بالشّاعر لا بالشّعر، وترجع الخلق الأدبي إلى الموهبة، وعليه فقد رفضت الشّكليّة تفسيرات الخيال والعبريّة، وكلّ ماله علاقة بنفسيّة المؤلّف أو المتلقّي⁽¹⁷⁾، وبالتالي نادى الشّكلاونيون الرّوس باستقلال الأعمال الأدبيّة، ولدعم هذا المبدأ الخاص باستقلال الأعمال الأدبيّة، كان من الضّروري مواجهته بمجموعة من الوقائع المعاصرة الأخرى، فاختار الشّكليون أقرب الأنظمة التي تشبه الأدب، وإن كانت تختلف عنه في الوظيفة، وهي النّظام اللّغوي، على أساس أنّ مادّة الأدب تتمثّل أولاً في اللّغة، على أنّ هذه اللّغة بدورها تمثّل حلقة الاتّصال بين الأدب والحياة⁽¹⁸⁾.

أثرت المدرسة الشكليّة الروسية على النّقد الأدبي في روسيا، فقد اجتمع علماء المدرسة الشكليّة للبحث عن طريقة علمية موضوعية لدراسة الأدب، الذي اعتبروه مستقلاً بذاته عن كل الظروف الخارجيّة بما فيها سيرة المؤلّف، والظروف الاجتماعيّة والتاريخيّة، ووظيفة النّاقّد - عندهم - تتجلى في تحديد الأدبيّة، وقد اهتم الشكلاونيون بدراسة الصوت والإيقاع وكل ما له علاقة بالشكل.

في السّادس من أكتوبر عام 1926، تأسّست حلقة براغ اللّغويّة وقد أسّسها "فيلام ماثريوس"، فبعد عشر سنوات من ظهور أفكار "دي سوسور" منشورة في كتابه "محاضرات في الألسنيّة العامّة" نشأت مدرسة براغ اللّغويّة في تشيكوسلوفاكيا⁽¹⁹⁾. ويذكر "بيتر شتينر" أنّ تسميّة "حلقة براغ اللّغويّة" جاءت من تسميّة "حلقة موسكو اللّغويّة" ذلك لأنّها تضم عضوين من أبرز أعضاء حلقة موسكو، وهما: جاكسون وبوجاترف، وقد ألقى العديد من الشّكلانيين محاضرات في براغ⁽²⁰⁾.

التقط علماء حلقة براغ مشعل الدّراسات اللّغويّة الحديثة الذي صبّ سوسور زيتّه، ونسجت الشكليّة خيوطه، وأخذوا يتحدّثون بشكل صريح، متماسك عن بنائيّة اللّغة، فيقول أحد منظّريهم: يمكن تحديد البنيويّة على أساس أنّها التّيار اللّغوي الذي يعتني بتحليل العلاقات بين العناصر المختلفة في لغة ما، حيث يتم تصوّرها على أنّها كل شامل تنظّمه مستويات محدّدة⁽²¹⁾. تعدّ مدرسة براغ من أوّل المدارس التي تجلّت فيها أفكار دي سوسور، وهي مرتبطة بالتّيارات اللّسانيّة الغربيّة والروسيّة⁽²²⁾ وبعض أعضائها من المدرسة الشّكلانيّة الروسيّة، حيث ضمت عددا من الباحثين التشيكيين وباحثين من ألمانيا، ولسانيين من روسيا⁽²³⁾ رغم العلاقة الوطيّة بين حلقة براغ، والمدرسة الشّكليّة الروسيّة، يعلّق "تيري إيجلتون" قائلاً: «إنّ مدرسة براغ للغويّات - جاكسون، ويان موكاروفسكي، وفيلكس فوديتشكا وغيرهم، تمثّل نوعاً من الانتقال من الشّكليّة إلى البنيويّة الحديثة. فقد طوّر أعضاؤها أفكار الشّكليين، لكنهم نظّموها نسقيّاً على نحو أكثر رسوخاً في إطار لغويّات دي سوسور، أصبح من الواجب النّظر إلى القصائد باعتبارها بنيات وظيفيّة، تكون فيها الدّلالات والمدلولات، محكومة بمنظومة واحدة مركّبة من العلاقات، ويجب دراسة هذه العلامات لذاتها، وليس كانعكاسات لواقع خارجي. لقد ساعد تأكيد دي سوسور

على العلاقة التّعسّفية بين العلامة والمرجع، بين الكلمة والشيء على فصل النص عن الوسط المحيط به، وجعله موضوعاً مستقلاً⁽²⁴⁾.

كما تميزت مدرسة براغ بدراساتها للغة دراسة وظيفية، ورغم انطلاقها من أفكار "دي سوسور" إلا أنها انفردت بنظرها الوظيفية للغة، فالعمل الأدبي عند علماء هذه المدرسة، بنية وظيفية، ومجموعة عناصر لا تتحدد إلا بمجموعة العلاقات الداخلية التي تعمل على ربطها ببعضها البعض كما يمكن لنفس هذه العناصر أن تؤدي وظيفة مغايرة تماماً في بنية أخرى.

3. آليات التحليل النبوي للنص الأدبي:

إن توجه النقد العرب إلى "النبوية" كان توجهها تفرضه مواجهة الواقع الأدبي والنقدي، خاصة في ظل المتغيرات التي مرت بها الأمة العربية من اتفاقية سلام وانفتاح، مما أوجد نوعاً من الانفتاح الثقافي اتجاه الغرب، وليس من الصحيح تبرير توجه النقد إلى "النبوية" في تلك الفترة بنزعات شخصية أو رغبات ذاتية في التعالي وتحقيق شهرة شخصية، وإن كان ذلك موجوداً بحكم الطابع البشري عند بعض النقاد⁽²⁵⁾.

ومثلما كان هناك اختلاف في تعامل النقد العرب مع الأسس النظرية "للنبوية" كان هناك اختلاف في تعاملهم التطبيقي معها، فكان هناك ثلاثة اتجاهات رئيسية في التعامل التطبيقي معها:

فأولاً: هناك نقد تطبيقي قام على استلهاً الأسس الإجرائية "للنظرية النبوية"، لكنه تجاوب مع ما يواجهه من مشكلات منهجية تولدت أمامه، ومن ثم حاول الناقد التفاوض مع هذه المشكلات والوصول لحل لها، مما أفضى إلى تعديلات في المنهج المستخدم.

وثانياً: هناك اتجاه تابع ما تفترضه "النظرية النبوية" من إجراءات تطبيقية بغض النظر عما تولّد أمامه من مشكلات منهجية، فكان المحك الرئيسي عنده هو تمثل إجراءات هذه النظرية تمثلاً دقيقاً، دون طرح فرضية إمكانية إجراء تغيير في المنهج المستخدم.

وثالثاً: هناك الاتجاه الذي تحلل من ذلك كله، وقدم نقداً تطبيقياً وضع في خلفيته الأسس المنهجية "للنظرية النبوية"، لكنه اعتمد بشكل كبير على الحساسية الخاصة في التفاعل مع النص الأدبي، في ضوء ما تقدّمه النظريات والمناهج المختلفة من معارف، وما توفر له خبرته النقدية والثقافية من معرفة جمالية بالنصوص الأدبية⁽²⁶⁾.

لم يتطرق النقد العربي القديم إلى العلاقات الرابطة بين العناصر، وبالتالي لم يتطرق للنظام، وإنما درس العناصر في استقلالها، حيث ركز الأدباء والنقاد العرب على ثنائية (اللفظ، المعنى) فدرسوا النص على مستويين: مستوى اللفظ ومستوى المعنى⁽²⁷⁾. أما جمالية النصوص الأدبية حسب النقد البنيويين فتظهر في نظام البنية ذاتها، وفي نظام التركيب اللغوي لها، أي في البنية ككل لا في جملها ومفرداتها فحسب، حيث تتجلى من خلال التكرار وما ينتج عنه من تفجير للمعاني وتحديد لها، ومن خلال المعادلات والتبادلات والتوازن التي تحدد دلالات النص،

كما تظهر هذه الجمالية في الأصوات والحروف والوحدات المعجمية التي تعمل على توليد رؤية ذات علاقة وطيدة بالظروف الاجتماعية والواقع التاريخي لتلك المرحلة⁽²⁸⁾.

تبعد البنيوية في تحليلها للنص الأدبي الانفعال والأحكام الوجدانية وتعتبرها عاجزة تماما عن فحصه في ذاته، ومن أجل ذاته وهذا أمر ضروري لاكتشاف ملامح النص الفنية، ولا يتحقق إلا بدراسة العلاقات الداخلية الرابطة بين وحدات النص الأدبي.

إنّ ما يهمننا هو الصيغة اللسانية التي يمكنها أن تكشف المرئي واللامرئي في الأدب، ذلك لأن الأدب في صيغته الأخيرة هو نص مكتوب، هذا النص فيه ما يظهر على السطح، وما يبقى في الأعماق، وما يمكن أن يعد خطابا اتصاليا للغة (لغوي - بنية سطحية)، وما يمكن أن يعد خطابا ما وراء اتصاليا للغة (فوق لغوي - بنية عميقة) ذلك لأن الأدب - وهنا نأتي إلى تعريفه - هو فن قد يستعمل اللغة بطريقة جمالية مستخدما العاطفة والتجربة والرغبة في صياغة عالم جديد ينطلق من واقع الإنسان. ومهمة النقد الأدبي المعاصر، هي كشف هذا العالم وتفكيكه وتحليله، وإعادة بنائه باستمرار، بحيث يمكن للنقاد أن يساهم في عملية إعادة البناء ليكون عمله أشبه بخلق عالم لاحق (عمل نقدي) لعالم سابق (نص أدبي)⁽²⁹⁾.

إنّ الأدب لا يستبعد أي وجه من أوجه التجربة الإنسانية، كما أنه ليس وقفا على أي واحد منها، حيث أن كل كلام يمكن أن يكون أدبا، إذا ما استعمل اللغة كوسيلة للتعبير، وهكذا لا يمكننا وصف الأسلوب بصفات محددة⁽³⁰⁾. حيث نجد الأسلوب الأدبي يمثل أصعب أنماط اللغة على الإطلاق نظرا لانحرافه عن اللغة اليومية العادية⁽³¹⁾.

وعليه لا يمكن للخارجي أن يحدد علاقات النص الداخلية، لأنّ النص قد تجاوز هذا الخارجي، ومن ثم تحرر منه، واستقل عنه لوجود جديد ينبنى عليه عالم جديد، وستظل النصوص مفتوحة كإمكانيات لمعان لم تأت بعد، بمعنى أنه قد يأتي يوم يكشف فيه العلم عن هذه المعاني، لأنّ المعرفة ليست نهائية، بل هي تنمو وتتعدل وتتطور باستمرار⁽³²⁾.

إن الدراسة اللغوية للأدب حديثة النشأة، حيث لم يهتم بها اللسانيون الأوائل إلا قليلا، وقد درس فرديناند دي سوسور اللغة المنطوقة وفضلها على اللغة المكتوبة، فقادته رؤيته هذه إلى تجنب الدراسات اللسانية للأدب، الذي اعتبره استعمالا لغويا خاصا لا علاقة له بالدراسة اللغوية⁽³³⁾.

تطورت الدراسات اللسانية وانتقلت البنيوية كمنهج لمجالات عدة من بينها: الدراسات الأدبية فأصبح النقاد يعالجون النصوص الأدبية من منظور بنيوي متأثرين في ذلك بمفهوم البنية في الدراسات اللغوية.

إنّ النص الأدبي عند البنيويين مستقل تماما عن كل ما يحيط به، حيث لا علاقة له بالأدب أو المجتمع أو الحياة، وهو نظام من الدلالات والرموز تولد في النص، وتعيش فيه ولا علاقة لها بخارجها⁽³⁴⁾، وإن كانوا لا يرفضون الدراسات النفسية والاجتماعية للأدب، فهم يرفضون أن تمثل محور دراساتهم، أو معيارا جماليا لها لأنها تتعامل مع لغة النص كتعاملها مع الوثائق الشخصية، مغفلة جانبها الجمالي الذي يميزها عن غيرها من اللغات⁽³⁵⁾.

ينطلق البنيويون من ضرورة التركيز على الجوهر الداخلي للنص الأدبي وضرورة التعامل مع النص دون أية افتراضات سابقة من أي نوع من مثل علاقته بالواقع الاجتماعي، أو بالحقائق الفكرية، أو بالأدب وأحواله النفسية والاجتماعية، لأن العمل الأدبي - كما يرون - له وجود خاص، وله منطق ونظامه، أي له بنية مستقلة، هي مجموعة من العلاقات الدقيقة التي تؤلف فيما بينها شبكة من العلاقات. هذه البنية العميقة، أو هذه الشبكة من العلاقات المعقدة هي التي تجعل من العمل الأدبي عملاً أدبياً، أي هنا تكمن أدبية الأدب⁽³⁶⁾.

والنص عند البنيويين مغلق له بنية مركزية، ونظام معين، تشكله العلاقات الداخلية، ولعلّ مصدر هذه النظرة اللغوية للأدب، هو النموذج اللساني، والبنيوية اللغوية التي قالت بسيطرة النظام اللغوي على عناصره، فكانت اللغة بذلك شارحة لحضارتها.

يعتمد البنيويون على خطوة أساسية تتمثل في فكرة أدبية الأدب، إن عمل الأديب له وجود خاص، وله منطق ونظامه أي له بنية مستقلة، هذه البنية العميقة أو التحتية هي مجموعة من العلاقات الدقيقة التي تؤلف فيما بينها شبكة من العلاقات وهي التي تجعل من العمل الأدبي عملاً أدبياً، أي هنا تكمن أدبية الأدب⁽³⁷⁾.

وفكرة "أدبية الأدب" نقلت مركز القيمة في الأعمال الأدبية من السياق التاريخي والسياسي الاجتماعي والسياسي النفسي لتضعه في السياق المنبثق من الأعمال الأدبية ذاتها، أي في طبيعتها الشعرية بالمفهوم الواسع لكلمة الشعرية التي لا تقتصر على جنس بذاته، وإنما تشمل كل الأجناس الفنية، ارتبط ذلك إلى درجة كبيرة بنظرية شاملة لجاكسون عن وظائف اللغة طبقاً لمنظومة المرسل والرسالة والمرسل إليه وقناة التواصل والشفرة والمرجع، ووظائف اللغة عنده ستة؛ أبرزها الوظيفة الشعرية، وهي التي يصبح فيها التركيز على الرسالة ذاتها⁽³⁸⁾ أي أن النص يتضمن عادة هذه الوظائف التي أتى بها جاكسون بدرجات متفاوتة، فغالبا تقوم الوظيفة الشعرية بوصف الرسالة بأنها أدبية، فالوظيفة الشعرية هي المقابل لأدبية الأدب أو هي مبدأ "أدبية الأدب" بفكرة "موت المؤلف" من خلال اهتمامه بالجوهر الداخلي للنص، وإقصاء العوامل الخارجية المتعلقة بحياة المؤلف ومشاعره، وظروفه الاجتماعية والتاريخية وكل ما يحيط به.

لقد أصبحت القراءة مع البنيوية عملية تفاعل بين قدرة القارئ من جهة ولغة النص من جهة أخرى، حيث دعمت دور القارئ في إنتاج المعنى مما أدى لصياغة نظرية جديدة في القراءة مرتبطة بمفهوم "اللغة" عند "دي سوسور" والقدرة عند "تشومسكي". لا تتعامل البنيوية مع ذات القارئ وإنما تمنحه دوراً يتجلى في تجسيد الشفرات الرابطة بين النص وقارئه، وبقدر ما تهتم البنيوية بمفهوم القارئ ودوره في إنتاج المعنى، تهوّن من مفهوم المؤلف وتنادي بموته بعد إنهاء نصه⁽³⁹⁾، لأنّ القارئ هو من يحدد في لحظة قراءته للنص معنى معين ومتناسك قد يتجاوز فيه ما قاله الكاتب لأن: "سياق كتابة النص ليس هو بالضرورة سياق قراءته"⁽⁴⁰⁾.

4. خاتمة:

تناولنا في هذا البحث: التّقدّ البنيوي: بينيّة اللّسانيات والتّقدّ الأدبي، فتحدّثنا عن الإرهاصات الأولى للتّقدّ البنيوي، حيث لا يختلف باحثان على أنّ النّظرية اللّغويّة، تعدّ نقطة انطلاق للبنيويّة اللّغويّة، ثمّ البنيويّة الأدبيّة، ثمّ انتقلنا للحديث عن آليات معالجة النّصوص الأدبيّة بنيويًا، وختمنا بحثنا بخاتمة، تضمّنت أهمّ التّائج المتوصّلة إليها، مع مقترحات وتوصيات.

ومن أهمّ التّائج التي توصّلت إليها:

- ظهرت البنيويّة لسانيًا، وظهر مفهوم البنية عند اللّسانيين، ثمّ انتقل إلى مختلف المجالات ومن بينها التّقدّ الأدبي.
- ولعلّ مركز انطلاق الفكر البنيوي، كتاب دي سوسور "محاضرات في الألسنيّة العامّة"، ومن أهمّ الثنائيات التي تقوم عليها نظريّة "سانكروتيّة، دياكروتيّة" التي غيّرت من المفاهيم آنذاك، ودعت لدراسة اللّغة آنيًا لا تاريخيًا، فصارت اللّغة نظامًا مستقلًا بذاته، لا علاقة له بالتّاريخ.
- يستهدف التّحليل البنيوي، الكشف عن عناصر البنية، أي عناصر النّص الأدبي، أي دراسة الصّورة والموسيقى والرّمز، وذلك ضمن شبكة العلاقات اللّغويّة، بإمكان التّقدّ التّظر في هذه الشّبكة مقاربا المستوى السّطحي للبنية، نافذا إلى البنية العميقة، كما أنّه قد ينظر لمكوّنات النّص عبر بنيته، وأشكال التّكرار فيها أو أنساق التّركيب للصّورة الشعريّة، كما أنّه بإمكان التّأقّد تحليل النّصوص بتحديد محاور التّحرّك في رواية معيّنة مثلا، فيحدّد مكوّناتها التي قد تكون شخصيّة، أو مجموعة شخصيات، أو فعاليّة متجلّية في حدث أو مجموعة أحداث.
- لذا فقد تعامل البنيويون مع جوهر النّصوص الأدبيّة، وجعلوا للنّص بنية مركزيّة، يدرس من خلالها.
- وأخيرا لا بدّ من عرض بعض المقترحات، والتّوصيات، التي توصّلتنا إليها من خلال دراستنا هذه:
- تجدر الإشارة هنا، إلى أنّه يستحيل الوصول إلى الدقة في تحديد منهج واحد لتحليل النصوص الأدبيّة، بحكم الطرق الكثيرة والمتعددة التي اتبعها البنيويون، ولأنّ الخوض في التفاصيل قد يطرح نقاشات عدة، ولعلّ السبب راجع لكون التفكير البنيوي لم يتطور باتجاه واحد، فكل ناقد حلّل حسب ثقافته أو الموضوع المدروس أو... لكن ورغم اختلاف الطرق تبقى دراسة البنية هي الهدف المقصود، وهكذا كان النّص الأدبي عند البنيويين وحدة دالة، لا تدرس إلا من داخلها، هذه الوحدة تقبل قراءات عديدة يستمد القارئ فيها داله ومدلوله من لغة النّص.
- لقد تحوّلت الكتابة مع البنيويين إلى بنية مفتوحة، تقبل عدّة قراءات، وأصبح للقارئ دور فعّال في توليد المعنى، حيث ينعدم دور المؤلّف بإنهائه لنصّه، كما أنّه لا يوجد قواعد ثابتة توجّه المحلّل نحو تحليل معيّن، بل نوعيّة النّص تفرض عليه نوعيّة التّحليل المناسب، لذا نجد البنيويّة تهتمّ بالقارئ، ودوره الهام في تحديد معنى النّص.

5. الهوامش:

- (1) عبد السلام المسدي، النقد والحداثة، ط1، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 1983، ص 32.
- (2) توفيق الزيدي، أثر اللسانيات في النقد العربي الحديث، دط، الدار العربية للكتاب، 1984، ص 18.
- (3) صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي، ط3، بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1985، ص 23.
- (4) المرجع نفسه، ص 24.
- (5) عالم الفكر: المجلد السادس والعشرون - العدد الثاني - أكتوبر ديسمبر 1997، ص 266.
- (6) نايف حزماء، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، علم المعرفة، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - ص 106.
- (7) عالم الفكر، المجلد السابع والعشرون، العدد الأول، الكويت، سبتمبر 1998، ص 127.
- (8) ينظر، رمان سلدن، النظرية الأدبية المعاصرة، ترجمة: جابر عصفور، القاهرة: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، 1991، ص 23.
- (9) ينظر، جان ايق تاديه، التقد الأدبي في القرن العشرين، ترجمة: منذر عياشي، ط1، مركز الإنتماء الحضاري للنشر، 1993، ص 19.
- (10) ينظر، صلاح فضل، نظرية البنائية في التقد الأدبي، ص 45-46.
- (11) ينظر، وائل سيد عبد الرحيم، تلقي البنيوية في التقد العربي - نقد السرديات نموذجاً - ط1، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، 2008، ص 35.
- (12) صلاح فضل، نظرية البنائية في التقد الأدبي، ص 45.
- (13) ينظر، تريفان تودوروف، الشعرية، ترجمة: شكري المبخوث ورجاء بن سلامة، ط2، الدار البيضاء: دار توبقال، 1990، ص 14.
- (14) ينظر، وائل عبد الرحيم، تلقي البنيوية في التقد العربي - نقد السرديات نموذجاً -، ص 35.
- (15) ليونارد جاكسون، بؤس البنيوية - الأدب والنظرية البنيوية -، ترجمة: نادر ديب، ط2، دمشق: دار الفرق للنشر والتوزيع، 2008، ص 104.
- (16) ينظر، صلاح فضل، نظرية البنائية في التقد الأدبي، ص 51-52.
- (17) نظرية المنهج الشكلي، نصوص الشكلايون الروس، ترجمة: إبراهيم الخطيب، ط1، الشركة المغربية للنشر الحديث، 1982، ص 59-60.
- (18) صلاح فضل، نظرية البنائية في التقد الأدبي، ص 61.
- (19) ينظر، عبد القادر عبد الجليل، علم اللسانيات الحديثة - نظم التحكم وقواعد البيانات، ط1، دار صفاء للنشر والتوزيع، 2002، ص 235.
- (20) ينظر، وائل سيد عبد الرحيم، تلقي البنيوية في التقد العربي - نقد السرديات نموذجاً -، ص 41-42.
- (21) صلاح فضل، نظرية البنائية في التقد الأدبي، ص 110.
- (22) ينظر، رومان جاكسون، الاتجاهات الأساسية في علم اللغة، ترجمة: علي حاكم صالح، وحسن ناظم، ط1، بيروت: المركز الثقافي العربي، 2002، ص 14.
- (23) ينظر، المرجع نفسه، ص 13.

- (24) تيري إيجلتون، مقدمة في نظرية الأدب، ترجمة: أحمد حسان، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سبتمبر 1991، ص 124.
- (25) عالم الفكر المجلد السابع والعشرون، العدد الأول، ص 256.
- (26) المرجع نفسه، ص 259 - 260.
- (27) عيسى العبد، في معرفة النص، دراسات في النقد الأدبي، ط3، بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1985، ص 96.
- (28) ينظر: المرجع نفسه، ص 127.
- (29) مازن الواعر، دراسات لسانية تطبيقية، ط1، دمشق: دار طلاس، 1989، ص 123.
- (30) ينظر، المرجع نفسه، ص 130.
- (31) ينظر، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- (32) عبد الله محمد الغدامي، تشريح النص مقاربات تشريحية لنصوص شعرية معاصرة، دط، بيروت: دار الطليعة للنشر، دت، ص 79.
- (33) ينظر، إلياس خوري، الذاكرة المفقودة، دراسات نقدية، ط1، لبنان: مؤسسة الأبحاث العربية، 1982، ص 119.
- (34) ينظر، شكري عزيز ماضي، محاضرات في نظرية الأدب، ط1، دار البعث، 1984، ص 139.
- (35) ينظر، صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي، ط3، بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1985، ص 314.
- (36) شكري عزيز ماضي، محاضرات في نظرية الأدب، ص 138.
- (37) صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي، ص 314.
- (38) صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، ط1، الدار البيضاء - المغرب: إفريقيا الشرق، 2002، ص 92.
- (39) ينظر، أديت كيرزويل، عصر النبوية من ليفي شتراون إلى فوكو، ترجمة: جابر عصفور، ط1، بغداد: 1985، ص 285.
- (40) حميد الحمداي، القراءة وتوليد الدلالة، تغيير عادتنا في قراءة النص الأدبي، ط1، المغرب: المركز الثقافي العربي، 2003، ص 53.

6. قائمة المراجع:

• الكتب:

- (1) إلياس خوري، الذاكرة المفقودة، دراسات نقدية، ط1، (لبنان: مؤسسة الأبحاث العربية، 1982).
- (2) توفيق الزبيدي، أثر اللسانيات في النقد العربي الحديث، (الدار العربية للكتاب، 1984).
- (3) حميد الحمداي، القراءة وتوليد الدلالة، تغيير عادتنا في قراءة النص الأدبي، ط1، (المغرب: المركز الثقافي العربي، 2003).
- (4) شكري عزيز ماضي، محاضرات في نظرية الأدب، ط1، (دار البعث، 1984).
- (5) صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، ط1، (الدار البيضاء، المغرب: إفريقيا الشرق، 2002).
- (6) صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي، ط3، (بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1985).
- (7) عبد السلام المسدي، النقد والحداثة، ط1، (بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 1983).
- (8) عبد القادر عبد الجليل علم اللسانيات الحديثة - نظم التحكم وقواعد البيانات، ط1، (دار صفاء للنشر والتوزيع، 2002).
- (9) عبد الله محمد الغدامي، تشريح النص مقاربات تشريحية لنصوص شعرية معاصرة، دط، (بيروت: دار الطليعة للنشر، دت).

- (10) مازن الواعر، دراسات لسانية تطبيقية، ط1، (دمشق: دار طلاس، 1989).
- (11) وائل سيد عبد الرحيم، تلقي البنيوية في النقد العربي - نقد السرديات نموذجاً-، ط1، (دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، 2008).
- (12) يمنى العيد، في معرفة النص، دراسات في النقد الأدبي، ط3، (بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1985).
- الكتب المترجمة:

- (13) أديت كيرزويل، عصر البنيوية من ليفي شتراون إلى فوكو، ترجمة: جابر عصفور، ط1، (بغداد: 1985).
- (14) تريفتان تودوروف، الشعريّة، ترجمة: شكري المبخوث ورجاء بن سلامة، ط2، (الدار البيضاء: دار توبقال، 1990).
- (15) تيري إيجلتون، مقدّمة في نظريّة الأدب، ترجمة: أحمد حسان، (الهيئة العامة لقصور الثقافة، سبتمبر 1991).
- (16) جان ايق تاديبه، النّقد الأدبي في القرن العشرين، ترجمة: منذر عياشي، ط1، (مركز الانتماء الحضاري للنشر، 1993).
- (17) رومان جاكسون، الاتجاهات الأساسيّة في علم اللّغة، ترجمة: علي حاكم صالح، وحسن ناظم، ط1، (بيروت: المركز الثقافي العربي، 2002).
- (18) رمان سلدن النّظريّة الأدبيّة المعاصرة، ترجمة: جابر عصفور، (القاهرة: دار الفكر للدراسات والنّشر والتّوزيع، 1991).
- (19) ليونارد جاكسون بؤس البنيويّة، الأدب والنّظريّة البنيويّة، ترجمة: نائر ديب، ط2، (دمشق: دار الفرقد للنّشر والتّوزيع)
- (20) نظرية المنهج الشكلي نصوص الشكلايون الروس، ترجمة: إبراهيم الخطيب، ط1، (الشركة المغربية للنّشر والمحدثين، 1982).

• المجلات:

- (21) عالم الفكر، المجلد السابع والعشرون، العدد الأول، (الكويت: سبتمبر 1998).
- (22) عالم الفكر: المجلد السادس والعشرون - العدد الثاني -، (الكويت: أكتوبر ديسمبر 1997).
- (23) نايف حزما، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب).